قتيبة بن مسلم

للاستاذ حمدي الحسيني

دهم شبيب بن يزيد الكوفة فهب الحجاج لدفعه . وعقد مجلساً حربياً من قواد الجيش، أبطال الحرب وأركان الإدارة، وأخذ يشاورهم فيما يجب أن يعمل لدفع جيوش شبيب المجتاحة للكوفة والمهددة للسلطة الأموية في العراق وإيران بأشد الأخطار وأفتك الأضرار، فقام من بين الصفوف رجل عليه جلال ووقار وفيه صيد وخيلاء ، أخذ كرسيه ووضعه أمام الحجاج وقال له : إن الأمير والله ما راقب الله ، ولا حفظ أمير المؤمنين ولا نصح الرعية . فغضب الحجاج وقال من المتكلم ؟ فقام قتيبة بن مسلم وأعاد كلامه فقال الحجاج فما الرأي؟ قال قتيبة: الرأي أن تخرج أنت إلى شبيب فتقاتل حتى ترتد . قال الحجاج فارتد لي معسكراً واغد إلي . ولما أصبح القوم غدوا إلى الحجاج فجعل رسوله يخرج ساعة بعد ساعة يسأل عن قتيبة وقتيبة لما يأت بعد .

جاء قتيبة عليه قباء هروي أصفر وعمامة خز أحمر متقلداً سيفاً عريضاً فقرع له الباب فدخل بغير استئذان، ولبث عند الحجاج طويلا ثم خرج وأخرج معه لواء منشوراً . وركب فرساً أغر محجلا كميتاً . وركب الحجاج على بغلته وسار الاثنان وسار الناس وراءهما إلى السبخة حيث يعسكر شبيب. وهناك دارت المعركة الحاسمة فانهزمت الخوارج ورجع الحجاج وقتيبة ومن معهما من أبطال الدفاع ظافرين منتصرين .

وخشي الحجاج على سلطانه من يزيد بن المهلب والي خراسان

ما استطاعت إلى ذلك سبيلا باسم الحرية ولا شيء غير الحرية ، حتى تلك الشرذمة المستخذية من اليهود تحاول ذلك وتعمل له في كل بقعة توجد فيها بشتى الوسائل والأساليب الملتوية في السر والعلن باسم الحرية أيضا ، ولكل منهم عذره أو كذبه الجميل المستساغ لأنه لا يقدم على شيء إلا (تضحية) من أجل السلام والعرفان والحرية ! !

لقد استعبدت الأمم الضعيفة لأنها لم تفهم من الحرية إلا أضدادها التي أراد لها السادة من خيانة وفجور وفساد وفوضى والتي أدت بهم إلى هذه الدركات الدنيئة من العبودية ، فهل تراها تستفيد من الماضي وتعمل على تحقيق نصيبها من الحرية الطبيعية الصحيحة التي يحرص عليها السادة المستعمرون كل الحرص ويقيمونها فيما بينهم ؟ أم تراها تؤثر دعة الخنوع والفقر والعبودية على مرارة الكفاح الصادق من أجل الخلاص والحرية عملا بالخرافة القائلة « إن الأقدار وحدها أن تجعل من تشاء سيدا وتجعل من تشاء مسودا؟

والآن يلوح أن العصر الحديث بعدنياته وعلومه وفلسفاته لم يرق بالإنسانية درجة واحدة نحو الكمال المنشود والفهم الصحيح لحقيقة الحياة ، فالإنسان في كل زمان ومكان لم تستطع المدنيات المتعاقبة ولا المعارف المتعددة أن تهذب من طباعه أو غرائزه شيئا وإنما زاده هذا الشعاع الضئيل من سراب المعرفة تيها وعجبا وأنانية ووحشية ورجع به القهقرى نحو عصور الهمجية الأولى ، فهو لا يكاد يفرغ من ظلم إلا ليبدأ ظلمات ، وهو لا يكاد يشبع شهوة إلا انصرخ فيه شهوات ، وهو لا يكاد يستجيب لأنانية حتى تستبد به أطماع وأحقاد وأنانيات تؤزه أزا نحو حرب تفضي إلى حروب تفضي به إلى فناء

ترى هل هنالك من عناية تنقذ هذا العصر من شره وتشعر الإنسان بقيمته فيدرك أنه روح وقلب قبل أن يكون جسدا وشهوة ، ويعرف أنه خلق لغاية وحياة أعقل من جهالة الشهوات وأسمى من ظلام الفناء ؟ أم تراه عصرا قد مات ضميره وفقد إنسانيته وتخلى عن دينه فركبه الهوى ومكن من أزمة قياده الشهوات فهو — في جهله وعماه — لا يرى الحرية في غير شهوته ولا يرى العالم قد خلق إلا لتلبية هذه الشهوة أو (الحرية) كما يشاء أن يضلل نفسه المعمية بتسميتها ، وليس يرى هذا المسكين شيئا يعادل إخماده غير الانتحار والفناء . لهذا نجد قادته يصيح كل منهم هذه الأيام على فيه ويين يديه ذرة وإيدروجينة قائلا « أنا ! أنا ! أنا ! إما أن أكون مالك كل شيء ، وسيد كل شيء ، ورب كل شيء ، وإلا فويل مني لكل شيء » ! ولا يستحي هؤلاء (العقلاء) أن التاريخ سيؤنبهم يوما فيقول فيهم « يالله من عصر مجنون، عصر الشهوة ذلك الذي كان يعيشه آخرون ! »

ابراهيم البطراوي

ومن آل المهلب الكرماء الشجعان فعزم على التخلص منهم وانقاء ما قد يحدث من عرامهم . ولكن من يدخل خراسان بعد يزيد ابن المهلب وخراسان عرين يزيد ومسبعة آل المهلب ؟

ليس لهذا الأمر الخطير إلا قتيبة، فقتيبة أسد وفي استطاعته أن يدخل عرين الأسود

وعلى هذا أقدم الحجاج على عزل يزيد بن المهلب عن خراسان فعزله وولى مكانه قتيبة بن مسلم ؛ فطار قتيبة إلى خراسان فوجد الفضل بن المهلب (الوالى الوقت) يعرض الجند لغزوة يريدأن يغزوها فأزاحه عن موقفه وحل مكانه واستعرض الجند وخطب فيهم حاثا على الجهاد . ثم رتب شؤون الإدارة والحكم واستعرض الجند في السلاح وطار بهم إلى غزو أعدائه وفتح بلادهم للاسلام والمسلمين فكان التوفيق يحفه في روحاته وغدواته، والنصر يرافقه في وثباته وغزواته

ولنتتبع الآن خطوات هذا الفاتح العربي العظيم الواسعة - في الأقطار الشرقية الشاسعة ، لنرى خطوات ثابتة متزنة في تسيير الجيوش وتوجيهها ، ووثبات قوية سريعة في ساحات الكر والإقدام، وغزوات موفقة ظافرة في ميادين الغزو والفتح مما يذكرنا بخطوات الإسكندر ووثبات خالد وغزوات نابليون

تحرك قتيبة لنشر دين الله في الأرض رحمة للعالمين ، وكانت هيبته قد سبقته إلى قلوب أعدائه فخرجت إليه ملوك الترك والصغد يسلمون إليه مفاتيح بلادهم ومقاليد أمورهم، تارة يصالحهم على فدية . ويقفون في وجهه يقاومون تارة أخرى فيدخل بلادهم في حرب . عشر سنين قضاها قتيبة غازيا فاتحا لم تقف له حركة ولم تبرد له همة ولم تطفأ لحربه نار

لم يعجب الحجاج من قتيبة خطة المصالحة التي اتبعها في بعض الممالك فلامه وعنفه لأنه ليس القصد من الفتح أخذ الفدية وتكديس المال والمتاع بل الغرض من الفتح نشر الدين وإنقاذ المشركين من عماية الضلال . فأخذ قتيبة يستعد لفتح بخارى رغم ما يكلف فتحها من تضحية فاستنصرت بمن حولها من ملوك الترك والصغد فتأهبوا لنصرتها ولكن عين قتيبة اليقظة لمحت إباء بخارى وامتناعها ونصرة جيرانها لها فوثب وثبته القوية السريعة فوصل قبل أن يصل أنصارها فألقى عليها الحصار وكانت بين المسلمين وأهل بخارى وأنصارهم معركة حامية الوطيس كان موقف المسلمين فيها غير موفق في أول الأمر فانتفض قتيبة في جيشه انتفاضة الأسد وأخذ يصب ما في نفسه من جرأة وشجاعة وثبات في نفوس أصحابه حتى ذكت الحماسة في الصدور فاندفع المسلمون على خصومهم اندفاع السيل الجارف غير آبهين بالأخطار المدمرة التي تقف أمامهم ، فلاح لهم النصر بغرته الجميلة فدخلوا بخارى ظافرين غانمين

اشتدت شوكة الجيش الإسلامي بهذا النصر المبين وازداد شعور قتيبة بقوته ازدياداً عظيما وأحس بأن هذه الليونة التي يظهرها له هؤلاء الملوك الذين صالحهم ويصالحهم على الفدية إنما هي فرص يغتنمونها ليتكتلوا ضده وينتقضوا عليه . ولهذا فقد سلك سلوكا آخر فأخذ يغزو ويفتح ولا يصالح إلا إذا قضت الضرورة الحربية بالصلح . ولذا رأيناه يلتفت إلى هؤلاء المصالحين الذين انتقضوا عليه في غيابه ورموه في ظهره فيكتسح بلادهم ويقتل ملوكهم جزاء خيانتهم وغدرهم ويثبت سلطانه في تلك البلاد تثبيتاً لا مجال فيه للخيانة والغدر

وقف قتيبة أمام سمرقند يناجي نفسه قائلا : يعشش فيك الشيطان؛ أما والله لئن أصبحت لأحاولن من أهلك أقصى غاية . سمع هذا القول أحد خاصة قتيبة فقال لبعض أصحابه كم من نفس أبية ستموت غداً منا ومنهم ! أجل لقد أصبح قتيبة والحمد لله سليما معافى، ولا بد من البر باليمين فأصدر أمره للجيش بالتقدم نحو سمرقند فسار الجيش للظفر المنصور نحو المدينة والله يعلم كم من النفوس الأبية قد ذهبت على أبواب سمرقند، ولكن على كل حال فقد فتحت سمرقند فدخلها قتيبة والسيف في يده يقطر دماً فوقف على جبل سمرقند ونظر إلى الناس متفرقين في المروج فتمثل قول طرفة : —

وأرتع أقوام ولولا محلنا بخشية ردوا الجمال فقوضوا

ارتحل قتيبة عن سمرقند بعد أن استخلف عليها أخاه عبد الله وترك له جنداً كثيفاً وعتاداً حربيا وقال له : لا تدعن مشركاً يدخل باباً من أبواب سمرقند إلا ختموا اليد، وإن جفت الطينة قبل أن يخرج فاقتله. وإن وجدت معه سلاحاً فاقتله. وإن أغلقت أبواب المدينة فوجدت فيها أحداً منهم فاقتله

غزا قتيبة كل هذه المغازي وفتح كل هذه الفتوح فلم تقف به همته عند هذا الحد بل دفعه الإيمان بالله والرغبة في نشر دين الله في أوسع بقعة من الأرض ما دام ذلك في إمكانه . إذاً لا بد لقتيبة من فتح كشغر تمهيداً لفتح الصين ، ففتح كشغر ليتخذها قاعدة حربية له في غزوته للصين . ولكنه فوجئ بموت الوليد ابن عبد الملك بعد موت الحجاج . والحجاج والوليد هما اللذان يثق بهما قتيبة ويعتمد عليهما ويستمد قوته منهما . إذاً فقد تغير الموقف وأصبح قتيبة يخشى سليمان بن عبد الملك ، لأن قتيبة كان قد سعى في بيعة عبد العزيز بن الوليد مع الحجاج، ولأن سليمان كان صديقاً ليزيد بن المهلب خصم قتيبة الألد . وما دام قتيبة يخشى سليمان فعليه أن يحتاط للأمر فينقل أهله وعياله إلى سمرقند ليكونوا بالقرب منه، حتى إذا بدا من سليمان ما يريب اعتصم دونه بهذه البلاد التي فتحها بسيفه . ولكن مع كل هذا لا بد من غزو الصين ما دام قد احتل كشغر وأصبح من الصين على الحدود

علم ملك الصين بعزم قتيبة على فتح بلاده فلم ير أمامه إلا المطاولة والمصابرة بالمفاوضة والمخابرة على أمل أن يكون في حادث الدهر ما يغني عن القتال . فأرسل ملك الصين إلى قتيبة أن ابعث إلينا رجلا من أشراف من معكم يخبرنا عنكم ونسائله عن دينكم. فانتخب قتيبة من عسكره اثني عشر رجلا لهم جمال وأجسام وألسنة وبأس، وجهز لهم أحسن جهاز وقال لهم إذا دخلتم عليه فأعلموه أني حلفت أن لا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم . وصل الوفد إلى الصين فدعاهم الملك فلبوا الدعوة ودخلوا عليه وهم في ثياب بيض تحتها الغلائل تنبعث من أردانهم رائحة الطيب فلم يكلمهم الملك، فهمهموا، فقال لمن حضر كيف رأيتم هؤلاء قالوا رأينا قوماً ما هم إلا نساء . ولما كان الغد أرسل إليهم فلبسوا الوشي وعمائم الخز. فلما دخلوا قيل لهم ارجعوا، فقال لأصحابه كيف رأيتم؟ قالوا هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال. فلما كان اليوم الثالث أرسل إليهم فشدوا عليهم سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر وتقلدوا السيوف وأخذوا الرماح وتنكبوا القسي وركبوا خيولهم وغدوا، فنظر إليهم ملك الصين فرأى أمثال الجبال مقبلة، فلما دنوا رشقوا رماحهم ثم أقبلوا مشمرين فقيل لهم ارجعوا ، فركبوا خيولهم واختلجوا رماحهم ثم رفعوا خيولهم كأنهم يتطاردون بها . فقال الملك لأصحابه كيف ترون؟ قالوا ما رأينا مثل هؤلاء قط . فلما أمسى الملك طلب زعيم الوفد فدخل عليه فقال له الملك . لم صنعتم ما صنعتم في الأيام الثلاثة؟ فقال له أما زينا في اليوم الأول فلباسنا في أهالينا، وأما اليوم الثاني فزينا إذا أتينا أمراءنا، وأما اليوم الثالث فزينا لعدونا. قال ما أحسن ما دبرتم؛ انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف. إني عرفت حرصه وقلة أصحابه وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه. قال له: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا وراءه قادراً عليها وغراك؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل . قال فما الذي يرضي صاحبك؟ قال إنه حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطي الجزية . قال فإنا نخرجه من يمينه ، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطأها ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها. دعا الملك بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجاز الوفد وسرحه إلى قتيبة فقبل قتيبة الجزية وختم الغلمة وردهم ووطئ التراب

رجع قتيبة إلى خراسان وكان سليمان قد ولي الخلافة فما لبث سليمان حتى عزل قتيبة عدوه وعدو صديقه يزيد بن المهلب، ولكن هيهات أن يذعن قتيبة لأمر سليمان دون أن تشرق هذه الأقطار بالقنا والصوارم والدماء والأشلاء فخلع قتيبة سليمان وأراد أن يملأها عليه خيلا ورجالا؛ ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه فقد حدثت فتنة عمياء صماء ذهب قتيبة وأهل بيته ضحيتها . قال رجل من عجم خراسان: يا معشر العرب قتلتم قتيبة؛ والله لو كان قتيبة منا لصنعنا فيه ما جعلناه في تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا . والله ما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة. وقال آخر: يا معشر العرب قتلتم قتيبة ويزيد بن المهلب وهما سيدا العرب. فقال له أحدهم أيهما كان أعظم عندكم وأهيب؟ قال : — لو كان قتيبة بالمغرب بأقصى حجر بالأرض مكبلا بالحديد ويزيد معنا في بلادنا وال علينا لكان قتيبة أهيب في صدورنا وأعظم من يزيد

رحم الله قتيبة بن مسلم الباهلي والي خراسان، وقاهر الشرك في إيران والأفغان وتركستان ، ومرغم ملوك الصين على التسليم والإذعان ، وجزاه عن المروءة والعرب والإسلام والمسلمين خير الجزاء وجعل الجنة مأواه

محمد الحسيني